# منهج الشريشي في شرحه لمقامات الحريري

**د. منار عبد الهادي**(*)

في مطلع القرن السادس الهجري شهدَ الأدبُ العربي ولادةَ تُحفةٍ فنيّة جديدة، أُضيفَت إلى نفائسه وذخائره، تلك هي مقامات الحريري، التي تُعدُّ أهمَّ كتاب ألَّفه الحريري، وإليها يُعزَى كلُّ ما جناه صاحبها من شهرة وفضل في مجال التأليف.

ونظرًا لأهمية المقامات وإقبال الناس عليها فقد تناولها العلماء بالشرح والتحليل، واندفعوا يتنافسون في توضيح غوامضها والغوص في أساليبها ومعانيها. وقد أورَدَ حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» أسماءَ العلماء الذين شرحوا المقامات، كما ذكر بروكلمان في كتابة «تاريخ الأدب العربي» أسماء المخطوطات لتلك الشروح، وأماكن وجودها في مكتبات العالم. وقد وصل عدد الشروح التي ذكرها كل من حاجي خليفة وبروكلمان إلى سبعة وأربعين شرحًا، إضافةً إلى تعليقات ابن الخَشّاب وابن برّي.(١)

---

(*) باحثة في الأدب والتراث من سورية.

(١) كشف الظنون ص ١٧٨٧- ١٧٩١ وبروكلمان ٥: ١٤٧- ١٥٠.

وتلك الشروح ما تزال مخطوطة، ولم يُطبَع منها سوى «شرح غريب المقامات الحريرية» للعكبري (ت٦١٦هـ) بتحقيق محمد رجب ديب[٢]، و«شرح مقامات الحريري» للشريشي (ت ٦١٩هـ) بتحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم.

ولعل الحديث عن المنهج الذي سار عليه الشريشي في شرحه يحتاج إلى التعريف أولًا بالحريري ومقاماته، لأن خصوصية المقامات فرضت على الشارح منهجًا متميِّزًا عن الشروح الأخرى للنصوص الأدبية.

**أولًا- الحريري ومقاماته:**

هو الرئيس أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري. نَشأ في قَرية قريبة من البصرة تُسَمَّى «المشان» سنة (٤٤٦هـ)، وسكن البصرة في مَحلّة بني حَرام. عُرف بالذكاء والفطنة وحُسن السيرة، واتصل بأكابر علماء عصره، فأخذ عنهم الفقه والحديث واللغة والأدب، وأمضى حياته متنقلًا بين المَشان والبصرة وبغداد، وتوفي في البصرة سنة (٥١٦هـ).[٣]

والمقامات في أصل اللغة: جمع مَقامة، وهي اسم للمجلس والجماعة من الناس. ثم أُطلق على الأحدوثة من الكلام، لأنها تُذكر في مجلس واحد، يجتمع فيه الجماعة من النِاس لسماعها.[٤]

---

(٢) نُشِر هذا الكتاب أيضًا بعنوان: شرح الألفاظ اللغوية من المقامات الحريرية، للعكبري، في دار سعد الدين بدمشق ٢٠٠٥، بتحقيق الدكتور ناصر حسين علي. [المجلة].

(٣) يُنظر معجم الأدباء ٦: ١٩٥ ووَفَيات الأعيان لابن خَلّكان ٤: ٦٤.

(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ١٤: ١٢٤.

والمقامات أقاصيص قصيرة، تحكي مغامرات أديب ظريف يتنقَّل بين البلدان، ويحتال بفصاحته الأدبية على الناس، فيصطاد الأموال ثم ينصرف إلى حيلة أخرى. ولهذا البطل راوية يشهد مواقفه، ويرصد أخباره، ويروي ذلك للناس.

ويُجمع العلماء على أن أول من تصدَّى لهذا الفن هو بديع الزمان الهمذاني (ت٣٩٨هـ).[٥] وكان الغرض من تأليفه للمقامات تعليميًا، إذ أراد من خلالها أن يقدّم للناشئة والمُتعلّمين ألفاظ اللغة، وأساليب استعمالها، وطُرق تأليفها، في قالب الفكاهة والتسلية.

وقد انتشرت مقامات البديع في أصقاع العالم الإسلامي، في مدة يسيرة. ولَقِيَت من العلماء قبولًا واستحسانًا. فراح بعضهم يحاول أن ينسج على منوالها، لكن المحاولات كانت متواضعة، إلى أن جاء الحريري (ت٥١٦هـ)، فأنشأ مقاماته الخمسين المشهورة، فجاءت نهاية في الحُسن، وأتَت على الجزء الوافر من الحظّ، وأقبل عليها الخاصّ والعامّ، حتى أنسَت مقامات البديع، وصيَّرتها كالمرفوضة[٦].

فالحريري إذن وصل بمقاماته إلى ذروة هذا الفن. وقد تحدَّث عن القيمة الفنية واللغوية لمقاماته بقوله: «فأنشأتُ خَمسينَ مَقامةً، تَحتَوي عَلَى جدِّ القَول وهَزله، ورَقيق اللَّفظ وجَزله، وغُرَر البَيان ودُرَره، ومُلَح الأدَب ونَوادره، إلَى ما وَشَّحتُها به منَ الآيات، ومَحاسن الكنايات، ورَصَّعتُهُ فيها منَ الأمثال العَرَبيّة،

(٥) صبح الأعشى ١٤: ١٢٥.

(٦) صبح الأعشى ١٤: ١٢٥.

واللَّطائف الأدَبيّة، والأحاجي النَّحْويّة، والفَتاوَى اللُّغَويّة، والرَّسائل المُبتكَرة، والخُطَب المُحَبَّرة، والمَواعظ المُبكية، والأضاحيك المُلهية، ممّا أملَيتُ جَميعَهُ عَلَى لسان أبي زَيدٍ السَّرُوجيّ، وأسنَدتُ روايتَهُ إلَى الحارث بن هَمّامٍ البَصريِّ».(٧)

فالمقامات إذن تحفة فنيّة تستمدُّ قيمتها ممّا تضمَّنَته من مَباحث جديدة، وأساليبَ مُبتكَرة، ومسائل لغوية هامة، وأمثال راسخة، وخُطَبٍ بليغةٍ، وتحليلات نفسيّة عميقة لشخصيّة البطَل، إضافة إلى احتوائها على كَمٍّ هائل من الألفاظ، إذ تميَّز أسلوب الحريري بالابتعاد عن التّكرار، وهذا أدَّى إلى اتّساع المعجم اللفظي، كما أدَّى إلى اتِّساع الأساليب التعبيرية، فالحريري مثلًا في كل مرة يحتاج إلى أن يقول:« فلَمّا حانَ وَقتُ الصُّبح» نجده يُعبّر عن هذا المعنى بغَير عبارته الأولى، فتارة يقول: «فلَمّا لاحَ ابنُ ذُكاءَ، وألحَفَ الجَوَّ الضّياءُ»،(٨) وتارة يقول: «إلَى أن أظَلَّ التَّنويرُ، وجَشَرَ الصُّبحُ المُنيرُ»،(٩) وتارة يقول: «حَتَّى إذا لألأ الأُفقَ ذَنَبُ السّرحان، وآنَ انبلاجُ الفَجر وحانَ»،(١٠) وحينًا يقول: «فلمّا قضى الليلُ نحبَه، وغَوَّرَ الصُّبحُ شُهْبَهُ»،(١١) وتارة يقول: «إلَى أن عَطَسَ أنفُ الصَّباح،

(٧) الحريري: مقاماته ص ٦ – ٧.

(٨) الحريري ص ٣٧.

(٩) الحريري ص ٤٧.

(١٠) الحريري ص ٩٥.

(١١) الحريري ص ١٣٩.

ولاحَ داعي الفَلاح»[١٢]، وتارة يقول: «فلمّا بَلَغَ اللَّيلُ غايتَهُ، ورَفَعَ الفَجرُ رايتَهُ»[١٣]. وهذا -كما قال الصَّفديّ - كثير في مقاماته، وهو من القدرة على الكلام.[١٤]

وأهم من ذلك أن المقامات قد تدفَّقَت في تُربتها أفضلُ الأساليب الفَصيحة المتنوّعة، التي اصطفاها عالمٌ مُتقن هو صاحب «دُرّة الغَوّاص»، ومُتيقّظ يضع في حُسبانه أن يهاجَمَ بسهام النَّقد. ولذلك جاءت أساليبه قمّة في البيان والفصاحة والسّحر. فهو تارة يجمع بين الجدّ والهَزل، ومرة يُغرَم بالمحسِّنات البديعيّة، وحينًا يُرصّع كلامَه بألوان التَّشبيه والاستعارات، وتارة يَجري على الطَّبع فيُلامس شَغافَ القُلُوب، ويستمطر من العُيُون الدّموعَ، وتارة يَنثني إلى مُداعبة الرُّوح واستحضار البَسمات، وأحيانًا يَلجأ إلى التَّضمين[١٥] فيَصل فيه إلى حُدود الإعجاز، بجَمال النَّقل، وحُسن الإشارة، ولُطف المُلاءمة، وجَودة التمهيد.[١٦]

**ثانيًا- الشريشي وشرحه للمقامات:**

هو:[١٧] الكمال أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى بن عبد

(١٢) الحريري ص١٤٩.

(١٣) الحريري ص٤٧٦.

(١٤) أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي ١: ٤١.

(١٥) تُنظَر في التَّضمين: مجلة التراث العربي العدد ٨٥ ص ٤٩. (ومجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد / ٥٥/ الجزء الأول والجزء الرابع [المجلة]).

(١٦) تُنظر: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٨٠ ص٧٨٦.

(١٧) نفح الطيب٢: ٣١٧ ومقدمة تحقيق الشرح الكبير للشريشي ١: ١٧.

المؤمن، القيسي الشريشي. ولد في شُريش سنة ٥٧٧هـ، وكانت من أجمل بلاد الأندلس، وأحفلها بالأشجار والزروع. درسَ العربية وعلومها على يد أكابر علماء عصره كابن جُبير الرحّالة المعروف، وابن زرقون وغيرهما. ثم مارس الإقراء والتدريس في مدن الأندلس.

له عدد من المؤلَّفات، منها: شرح الإيضاح للفارسي، ومختصر الجمل للزجّاجي، ومجموع شعري يضم قصائد عربية مشهورة، ورسالة في العروض، وكان شاعرًا مطبوعًا شائقَ اللفظ رشيق المعنى.

ومن بديع نظمه وهو بمصر يتشوق إلى الشام:

يا جِيرةَ الشّامِ هَل مِن نَحوِكُم خَبَرُ فـإنَّ قَلبِـي بِنـارِ الـشَّوقِ يَـستَعِرُ
بَعُـدتُ عَـنكُم فـلا واللهِ بَعـدَكُمُ مـا لَـذَّ لِلعَـينِ لا نَـومٌ ولا سَـهَرُ
إذا تَذَكَّرتُ أوقاتًـا نَـأتْ ومَضَت بِقُـربِكُم كـادَتِ الأحـشاءُ تَنفَطِـرُ

وله ثلاثة شروح لمقامات الحريري: كبير وهو أدبي، ومتوسط وهو لغوي، وصغير وهو المختصر. رحل إلى المشرق ثم عاد إلى شريش، فتُوفي بها سنة ٦١٩هـ.

والشرح الكبير هو موضوع البحث، وهو أهم الكتب التي شرَحَت المقامات على الإطلاق، إذ لم يترك صاحبُه في كتاب من شروحها فائدةً إلا استخرجها، ولا فريدةً إلا استدرَجَها، فصار شرحًا يُغني عن كلّ شَرح تقدَّمَه، ولا يُحتاج إلى سواه في لَفظ من ألفاظها(١٨). قال الشريشي: «لَمَ أدَعْ كتابًا أُلّفَ في

(١٨) كشف الظنون ص ١٧٩٠.

شَرح ألفاظها، وإيضاح أغراضها، إلاّ وَعَيتُه نَظَرًا، وتحقَّقتُه مُختبرًا، وتَرَدَّدتُ في تفهُّمه وردًا وصدَرًا، وعكَفتُ على استيفائه بَسيطًا كان أو مُختصَرًا، حتّى أتَيتُ على جَميع ما انتهَى إليه وسَعَى ممَّن فَسَّرها، واستَوعَبتُ عامةَ فَوائده المُمكنة بأسرها. ولَم أترُك في كتابٍ منها فائدةً إلا استَخرَجتُها، ولا فَريدةً إلا استَدرَجتُها، ولا نُكتةً إلاّ علَّقتُها، ولا غَريبةً إلاّ استَلحَقتُها، ولا غادَرتُ في مَوضع منها مُستَحسَنًا يشذّ عَن جَمعي، ولا مُستَجادًا يَنبُو عَنه بَصَري أو سَمعي.

وأنا في خلال ذلك ألتَمسُ مَزيدًا، ولا أسأمُ بَحثًا وتَقييدًا، إلى أن عَثَرتُ على شَرح الفَنجَديهي[١٩] للمقامات، فرأيتُ فيه الغايةَ المَطلُوبة، والبُغيةَ المَرغُوبة، والضّالّةَ التي كانت عنّي إلى هذا الأوان مَطويّةً مَحجُوبةً. فاستأنَفتُ النَّظَر ثانيًا، وشَمَّرتُ عَن ساعد الجدّ لا مُتكاسلًا ولا وانيًا، فاستَوعَبتُه أيضًا أبلَغَ استيعابٍ، وقيَّدتُ من فَوائده ما لَم أجدْ قَبلَهُ في كتابٍ»[٢٠].

يتَّضح مما سبق مدى الأهمية التي يَتمتَّع بها هذا الشرح، الذي ضَمَّنهُ صاحبُهُ فوائدَ الشُّرُوح التي سَبَقَتهُ، ثم أضافَ إليه ما جادَت به عبقريتُه وثقافتُه. فجاء شرحًا وافيًا جامعًا محاسنَ الإشارات، ودقائق العلوم، وفروعَ الاختصاصات،

(١٩) هو: أبو سعيد محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود المسعودي الفنجديهي (ت٥٨٤هـ)، وهو منسوب إلى قرية فنجديهة من عمل خراسان، شرَح مقامات الحريري في مجلدين، وسمّى شرحَه: مغاني المُقامات في مَعاني المَقامات. كشف الظنون ص١٧٩٠.

(٢٠) الشريشي ١: ٦- ٧.

ونوادر الثقافات، حتى أصبح موسوعةً أدبية لغويةً تاريخية.

**ثالثًا- منهج الشريشي في الشرح:**

ظهر فيما تقدَّم أن المقامات ذات قيمة لغوية أدبية في الدرجة الأولى. وهذا يعني أن الاتجاه اللغوي لا بدّ أن يفرض وجوده في كلّ شرح يتناولها، ثم يأتي دور ثقافة الشارح واختصاصه في تحديد الاتجاهات الأخرى؛ فبعض الشرّاح يتوسَّع في التعليقات النحوية والصرفية، وبعضهم يُغني شرحَه بالملاحظات النقديّة والبلاغية، وبعضهم يميل إلى التمحيص في الرواة ورواياتهم، وبعضهم يُكثر من الشواهد بحسب محفوظاته واختصاصه، وبعضهم يهتمّ بالمقارنة بين النصّ المشروح ونصوص أخرى، وبعضهم يُفيض في الحديث عن الحوادث التاريخية وأيام العرب، وبعضهم يعتني بالبلدان والأماكن وعادات الشعوب التي لاحَظَها في أسفاره، وبعضهم يعمد إلى الاستطراد ليُفرِغ في الشرح معارَفه وما يتميَّز به عن غيره، يُضاف إلى ذلك ما تفرضه قيمة النص وأهميته عند الناس على الشارح من ضرورة الدقة والتفصيل، أو الإجمال والإيجاز.

والمقامات - كما مرّ سابقًا – نالت شهرةً عظيمة، وإقبالًا مُنقطع النَّظير، «حتّى لَو ادَّعَى بها [الحريري] الإعجازَ لَمَا وَجَدَ مَن يَدفَع في صَدره، أو يرُدُّ قولَه، أو يأتي بما يُقاربُها، فَضلًا عن أن يأتيَ بمثلها. ثم رُزقَت مع ذلك من الشُّهرة وبُعد الصّيت، والاتّفاق على استحسانها من المُوافق والمُخالف ما استحقَّت وأكثَر».[٢١]

(٢١) معجم الأدباء ٦: ١٩٩.

ونظرًا لأهمية المقامات وعلوّ شأنها فقد فرضت على الشارحين اهتمامًا بكل لفظة من ألفاظها، فضلًا عن العناية الفائقة بعباراتها وأساليبها وما ضمَّته من أمثال وحِكَم وغير ذلك. ومن الطبيعيّ أن يتوسَّع كلُّ شارحٍ من شُرّاحها في عرض ما يتصل باختصاصه من معارف ونوادر وأخبار، رغبة في إظهار ثقافته والإدلاء بدلوه.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الشريشي اطَّلَع على كل الشروح التي سبقته، ولم يترك فيها فائدة إلا استخرجها وقيَّدها، وأضاف إلى شرحه ما لم يجده في الشروح التي سبقته، نستطيع أن ندرك أنه سار في شرحه وفق منهج تكاملي مُعزَّز بالاستطراد والتفصيل، بحيث أصبح شرحُه الكبير موسوعةً لغويّةً وأدبيّة وتاريخية. وفيما يلي عرض لمنهج الشرح واتجاهاته.

**١ – الاتجاه اللغوي:**

اهتمّ الشريشي اهتمامًا كبيرًا بالتفسير اللغوي، لأسباب: أولها يتعلق بأهمية المقامات وقيمتها عند الناس، وهذا جعله لا يُغادر لفظةً من ألفاظها إلا أخرجها من أكمامها وبيَّن مقاصد الحريري منها، وتحدَّث عن موقعها ومسوِّغات استعمالها إذا كانت مما يحتمل المناقشة.

والسبب الثاني هو: أن كثيرًا من الألفاظ التي استعملها الحريري في مقاماته يستعصي فهمها على القارئ، وتحتاج إلى تفسير معجمي، إضافة إلى أن كثيرًا من التراكيب ابتدعها الحريري وتحتاج إلى تفسيرِ ما تنطوي عليه من مجاز وعلاقات تركيبية.

والسبب الثالث: أن المقامات تضمَّنت الكثير من الأمثال والآيات القرآنية

والإشارات الثقافية، التي تحتاج إلى توضيح وتفسير.

وقد تمثل منهج الشريشي، في المستوى اللغوي، بتقسيم المقامة الواحدة إلى مقاطع، حيث يبدأ بعرض مقطع من المقامات، ثم يُتبِعه بالتفسير اللغوي، فإذا اقتضى الأمر استطرادًا أو ذكر قصة أو غير ذلك توقَّف عن التفسير اللغوي، ثم يعود لاستكماله بعد أن ينتهي من الاستطراد، ومن أمثلة منهج الشريشي في التفسير اللغوي ما جاء في المقامة الأولى (الصنعانية)، وهي مقامة وعظية، حيث عرض مقطعًا منها، ثم أتبعه بالشرح والتفسير على النحو التالي:

**«تُؤثِرُ فَلْسًا تُوعِيهِ، على ذِكْرٍ تَعيهِ، وتَختارُ قَصْرًا تُعْليهِ، على بِرٍّ تُولِيهِ، وتَرْغَبُ عَنْ هادٍ تَسْتَهْدِيهِ، الى زادٍ تَستَهْديهِ، وتُغلِّبُ حُبّ ثوبٍ تشْتَهيهِ، على ثوابٍ تشْتَريهِ.**

**يَواقيتُ الصِّلاتِ، أعْلَقُ بقَلبِكَ منْ مَواقيتِ الصَّلاةِ، ومُغالاةُ الصَّدُقاتِ، آثَرُ عندَكَ من مُوالاةِ الصَّدَقاتِ، وصِحافُ الألْوانِ، أشْهى إلَيْكَ منْ صَحائِفِ الأدْيانِ، ودُعابَةُ الأقْرانِ، آنَسُ لكَ منْ تِلاوَةِ القُرْآنِ».**[٢٢]

«تُؤثِرُ: تُفَضِّل. تُوعِيه: تجعله في وعاء. بِرّ: إحسان. تُولِيه: تُعطِيه وتُلصِقُه بمَن تبرُّه. هادٍ: مُرشِدٍ لطريق الخير. ترغبُ عنه، أي تتركه. تستهديه، أي تسترشده وتسأله أن يهديك إلى الخير. وتستهديه الثانية: تطلب أن يهدي لك هدية. يقول: تترك مَن يَهديك إلى طريق الخير، فلا تسأله الهداية، وتقصد أعراض الدنيا مِن

(٢٢) الحريري: مقاماته ص١٣- ١٤.

الأطعمة وغيرها، وترغب أن تُعطى منها هدية».[٢٣]

بعد أن عرض الشريشي المقطع السابق من المقامة الأولى، أردفه كما هو ملاحظ بتفسير الألفاظ، ثم ذَكَر المعنى العام، علمًا أنه لا يذكر المعنى العام إلا عندما تقتضي الضرورة، أو في حالات خاصة. وقبل أن ينتهي من التفسير اللغوي عَرض تسعة أبيات في الزهد لابن عمران، لوجود مناسبة بين الأبيات وجوّ المقامة التي منها المقطع السابق. ثم تابع التفسير اللغوي على النحو:

«الثواب: المكافأة على الفعل، وأراد به ما يُجازي الله به عبدَه على إحسانه من الأجر، وهو من ثابَ يثوب إذا رجع، وأَثَبْتُ الرجلَ: أعطيته الثواب، وهو المكافأة على فعله. قوله «يَواقيت»: أي جواهر. الصِّلات: العطايا. أعلَق: ألصَق. مواقيت: أوقات، وهي جمع ميقات».[٢٤]

ويتصف التفسير اللغوي عند الشريشي بالدّقة، إلى درجة الاقتراب من تفسير المعاجم. وهو يذكر أحيانًا الأصل الذي أُخذت منه بعض الألفاظ، كما في حديثه عن أصل الثواب أنه الرجوع. كما يذكر أحيانًا المفرد، إذا كانت الكلمة جمعًا، وهذا كثير، لكنه لا يلتزم به دائمًا.

وحين تَعرِضُ للشارح مناسبةٌ فإنه يدع التفسير اللغوي ويستطرد ليَستوفيها ثم يعود، ومن أمثلة ذلك هنا أنه لفتت نظرَه مسألة الجناس بين الصَّلاة

(٢٣) الشريشي ١: ٦٢.

(٢٤) الشريشي ١: ٦٣.

والصِّلات، فتوقف عندها قائلًا:

«وممّا يُستَحسَن مِن تجنيس الصِّلات والصَّلاة حكايةُ أحمد بن المدبِّر، وكان إذا مدحه شاعرٌ ولم يَرضَ شِعرَه قالَ لغُلامه: امضِ به إلى المسجد فلا تُفارقْه حتّى يُصلّي مئةَ ركعة ثمّ خَلِّه. فجاء الحسينُ بن عبد الرحمن البصري المعروف بالجَمل فاستأذَنَه في النشيد، فقال: أعرَفتَ الشرطَ؟ قال: نعم، وأنشد:

أَرَدْنــا في أبي حَــسَنٍ مَــدِيحًا    كــما بالمَــدْحِ تُنتَجَــعُ الــوُلاةُ
فقُلنــا أكــرَمُ الثَّقَلَــينِ طُــرًّا    ومَــن كَفّــاهُ دِجلــةُ والفُــراتُ
فقـالُوا: يَقبَـلُ المـدحاتِ لكِـنْ    جَــوائِزُهُ إلَى النّــاسِ الــصَّلاةُ
فقُلـتُ لهـم: ومـا تُغنِـي صَـلاتِي    عِيــالِي؟ إنّــما الــشّأنُ الزَّكــاةُ
فأمّــا إذْ أبَــى إلاّ صَــلاتِي    وعــاقَتنِي الهُمُــومُ الــشّاغِلاتُ
فيَـأمُر لِي بِكَـسرِ الـصّادِ مِنهـا    لعــلّي أنْ تُنَــشِّطَنِي الــصِّلاتُ
فيَـصلُحُ لِي عـلى هـذِي حَيـاتِي    ويَــصلُحُ لي عــلى هــذِي المَــماتُ

فضحك واستظرفه، وأمر له بمائة دينار، وقال: من أين أخذتَ هذا؟ قال: من قول أبي تمام:

هُـنَّ الحَـمامُ فـإن كَسَرتَ عِيافـةً    مِــن حــائِهِنَّ فــإنَّهُنَّ حِمــامُ».(٢٥)

فهنا نجد أن الشريشي لم يُفوِّت عليه ذِكر طُرفةٍ يعرفها، فتوقَّف عن التفسير اللغوي، واستطرد إليها واستوفَى ذِكرها، علمًا أن استطراده لم يأتِ إلا بمقتضى

(٢٥) الشريشي ١: ٦٣- ٦٤.

مناسبةٍ. وكأنه يُريد من وراء هذا المنهج، المتمثل بالتوقّف عن التفسير اللغوي واقتناص الطُّرَف والنوادر ثم العودة إلى اللغة، يُريد من وراء ذلك ابتداعَ منهج جديد يهدف إلى التخفيف من جفاف المادة اللغوية، ومَدِّها برحيق الطُّرفة ودماث الخبر. وبعد هذا الاستطراد عاد إلى متابعة التفسير قائلًا:

«قوله «مُغالاة الصَّدُقات» أي الزيادة في المهور، وغالَيتُ: زِدتُ في ثمن السِّلعة وردَدتُها غاليةً. والصَّدُقات: واحدتها: صَدُقة وهي الصّداق، قال النبي ﷺ: مِن يُمنِ المَرأةِ تَيسير صداقها وخِطبتها. قال عُروة: وأنا أقول: مِن أوَّل شُؤمها أن يَكثر صداقُها. آثَر: أفضل وأكثر أثَرَةً. مُوالاة: مُتابَعة. صَحائِف: جمع صحيفة، وهي الورقة يُكتَب فيها من الرِّقّ والقرطاس. دُعابة: مُزاح، وفي فلانٍ دُعابة، وتداعَب الرَّجُلان: تَمازَحا. وفي الحديث: «كانت فيه ﷺدعابة»، وفي حديث جابر رضي الله عنه: «هَلاّ بِكرًا تُداعِبُها وتُداعِبُك».

الأقران: الأصحابُ والأمثال. تلاوة: قراءة، وتلوتُه: قرأتُه. واختلفوا في اشتقاق القرآن فقال أبو عبيدة: سُمِّي قُرآنًا لأنه يجمع السُّوَرَ ويَضمُّها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] أي إذا جَمَعْنا لك شيئًا فضُمَّه واعملْ به. وقال قُطرب: سُمِّي قُرآنًا لأن القارِئ يُظهره ويُبَيِّنُه ويُلقيه مِن فيه، من قول العَرب: ما قرأتِ الناقةُ سَلًا قطّ، أي ما رَمَت به. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنّ القُلوبَ لَتَصْدأُ كما يَصدَأُ الحديدُ. قالوا: يا رسول الله ما جلاؤُها؟ قال: قراءةُ القرآن».[٢٦]

(٢٦) الشريشي ١: ٦٤.

بهذه الفقرة أنهى الشريشي شرح المقطع المُقتبَس من المقامة الأولى. ويُلاحظ على الشرح، إضافة إلى ما سبق عرضُه، أن الشريشي يقدِّم الشرح اللغوي تقديمًا مختصرًا بحسب الحاجة، ولا يستطرد في عرض المادة اللغوية، فمثلًا في تفسير كلمة «الأقران» لم يزد على قوله: الأصحاب والأمثال. علمًا أن بعض الشّراح يُسهب في عرض أجزاء من المادة اللغوية، فيأتي بالفعل مثلًا وبعض الاستعمالات المتصلة بمادته. وهذا لا يُسهم في خدمة النصّ، وخاصّةً بعد أن دُوِّنت المادة اللغوية في المعاجم وأصبحت معروفة. وقد أحسن الشريشي في تجنّبه التفصيلَ في عرض المادة اللغوية، وكأنه أراد أن يدّخر التفصيلَ والاستطراد للأمور البلاغية والأدبية والأخبار وغير ذلك.

ويُلاحَظ على الشرح أيضًا إيرادُ بعض الشواهد وخاصّةً من الحديث الشريف، وهذه الشواهد لم يكن الغرض منها خدمة التفسير اللغوي، بل جاءت على سبيل الاستطراد المُفيد، الذي يُسهم في تلطيف جفاف المادة اللغوية.

**٢- الاتجاه الصرفي والنحوي:**

تكثر في الشرح الإشارات الصرفية، وخاصة تلك التي تخدم التفسير اللغوي، كالحديث عن الأصول المصدرية والاشتقاقية لكثير من الأسماء الواردة في المقامات، فقد حاول الشارح في كثير من المواضع ربط أسماء الذات بأصول مصدرية، ذاهبًا إلى أن اسم الذات ليس مُرتجَلًا كما يرى كثير من الباحثين في علم الصرف، بل له أصول مصدرية أو اشتقاقية يعود إليها، ومن أمثلة ذلك قوله في أصل كلمة (العصا): «سُمِّيَت العَصا عَصًا لأن اليد والأصابع تَشتمل عليها، وهو

مِن قول العَرب: عصوتُ القومَ إذا جمعتَهم على خيرٍ أو شَرٍّ».[٢٧]

وقد يتطرَّق في حديثه عن أصل بعض الكلمات إلى قضايا صرفية تتعلق بالوزن وأحرف الزيادة وغير ذلك، كما في قوله: «المدينة: البَلَد، مَن أخذها من مَدَن بالمكان يَمدُن، إذا أقام فيه، فهي فعيلة والجمع مَدائن بالهمز، والميم أصلية والياء زائدة، ومَن أخذها من دانَ يَدينُ، فالميم زائدة والياء أصلية، وهي مَفعولة، يُقال: دِنتُ الرَّجُل: مَلكتُه، ودِنتُ له: أطَعتُ، ويُقال للأمَةِ مَدينة، لأنها مملوكة».[٢٨]

ومن أمثلة الإشارات الصرفية قوله: «معاذِيري: أعذاري. والعَذيرة: العُذر. ويُقال: عَذِيرَك مِن كذا، بمعنى هَلمّ معذرتك منه. وقيل: العَذِير بمعنى عاذِر، فَعيل بمعنى فاعل، أي هلُمّ لمن يعذرك منه. ثعلب: العَذير: مصدر بمعنى النَّكير. ومعنى عَذيري منه، أي مَن يَعذِرني منه؟».[٢٩]

وأما الإشارات النحوية فهي قليلة في الشرح، ولم يتعرض لها إلا في حدود ما احتوته المقامات من ذلك. وكأنه لم يشأ التوسُّع في هذا المجال رغبةً منه في تجنُّب ما هو جافّ وما لا يفهمه إلا المختصون، فالمقامات ألَّفها الحريري لتُتلى على الناس في المجالس، والشريشي أراد فيما أعتقد ألا يخرج عن هذا الغرض، فوضع في حسبانه ألا يُثقل شرحه بما لا يستسيغه عامة الناس في مجالسهم، ولذلك أفاض في الأدب والنوادر والأخبار، وجنح إلى الاختصار في مجال اللغة والنحو.

ومن أمثلة الإشارات النحوية ما جاء في شرحه للمقامة الرابعة والعشرين،

---

(٢٧) الشريشي ١: ٢٠٦.

(٢٨) الشريشي ١: ٢٧٣.

(٢٩) الشريشي ٤: ٣١٩.

حيث ذكر بعض التوجيهات النحوية تعقيبًا على الأحاجي التي ذكرها الحريري، فقد ورد في المقامة المذكورة أبيات كان يُغنِّيها أحد المطربين، ومنها:

«إلامَ سُعادُ لا تَصِلِينَ حَبلي ولا تأوِينَ لي ممّا أُلاقِي

فإنْ وَصلًا ألَذُّ به فوَصلٌ وإن صَرمًا فصَرمٌ كالطَّلاقِ»(٣٠)

فتساءَل الحاضرون عن علة نصب «وَصلًا» الأولى ورفع الثانية، ونصب «صرمًا» الأولى ورَفع الثانية، واختلفوا في ذلك. قال الشريشي:

«أما صدر البيت الأخير من الأغنية الذي هو: (فإن وَصلًا ألذّ به ...) فإنه نظير قولهم: المرءُ مَجزِيٌّ بعمله، إنْ خيرًا فَخيرٌ، وإن شَرًّا فشرٌّ. وهذه المسألة أودعها سيبويه كتابَه وجَوَّز في إعرابها أربعة أوجه:

أحدها - وهو أجودُها - أن تنصبَ «خيرًا» الأوَّل وترفع الثاني، وتنصبَ شرًّا الأول وترفع الثاني، ويكون تقديره: إن كان عملُه خيرًا فجزاؤُه خَيرٌ، وإن كان عملُه شَرًّا فجزاؤُه شَرٌّ. فتنصب الأول على أنه خبر كانَ، وترفع الثاني على أنه خبر مبتدأ محذوف. وقد حُذِفت في هذا الوجه «كان» واسمها لدلالة حرف الشرط الذي هو «إنْ» على تقديرهما، وحُذِف أيضًا المبتدأ لدلالة الفاء التي هي جواب الشرط عليه، لأنه كثيرًا ما يقع بعدها ...»(٣١)

**٣- الاتجاه البلاغي:**

أسهب الشريشي في الحديث عن البلاغة بفروعها الثلاثة المعاني والبَيان

(٣٠) الحريري: مقاماته ص٢٣٩.

(٣١) الشريشي ٣: ٢٢٨. وللتوسع في هذه المسأله يُنظر سيبويه: الكتاب ١: ٢٥٨.

والبَديع، والسبب يعود إلى الخصوصية التي تتصف بها المقامات، إذ إنها تمثِّل لوحة فنيّة ملوَّنة بكل ألوان البلاغة.

وجاء حديثه عن المسائل البلاغية ضمن الاستطرادات بصورة مفصَّلة ، أما ضمن الشرح فلم يكن يتحدَّث عن الصُّوَر البلاغية في الغالب، بل كان يكتفي بالتفسير الذي يخدم الفكرة، تاركًا للقارئ اكتشاف الصورة. ومن أمثلة ذلك ما جاء مثلًا في المقامة الرابعة إذ ورد فيها:

«**فرافَقْتُ صَحْبًا قد شَقُّوا عَصا الشِّقاقِ، وارتَضَعُوا أفاوِيقَ الوِفاقِ**».(٣٢)

قال الشريشي في الشرح: «رافَقتُ: صَحِبتُ في السَّفَر. والصَّحب: الأصحاب. الشِّقاق: الخِلاف. ومعنى شَقُّوا عَصاه: أزالوه وطرحوه، والعرب تقول: شَقَّ فلانٌ العَصا، إذا تَرَك الطاعةَ وخَرج مُباينًا، قال أبو عبيدة: العَصا تُضرَب مثلًا للاجتماع، وانشقاقها يُضرَب مثلًا للافتراق الذي لا اجتماع بعده. أفاويق: جمع أفواق، وأفواق جمع فُواق، وهو ما بين الحَلْبَتَين. والوِفاق: تَرْك الخِلاف، وقد وافَقتُه مُوافقةً ووِفاقًا».(٣٣)

فهنا يبدو الشريشي وكأنه يتحدَّث عن استعمال يصبّ في الحقيقة لا المجاز، إذ لم يذكرْ حدود الصُّوَر البلاغية، بل ترك ذلك للقارئ، وركَّز على جلاء المعنى وتوضيحه. وهذا يُمكن تعميمه على كلّ الشرح.

أما في الاستطرادات فنراه تحدَّث حديثًا مفصَّلاً عن مسائل البلاغة وفروعها،

(٣٢) الحريري: مقاماته ص٣٢.

(٣٣) الشريشي ١: ١٥٩.

ففي شرحه للمقامة التاسعة مثلًا استطرد بذكر أشعار في التشبيه.[٣٤] وفي شرحه للمقامة الثالثة والعشرين استطرد بذكر كثير من المسائل البلاغية، فتحدَّث عن: التجنيس والتشبيه والاستعارة والإشارة والإيماء والتَّلويح والتعريض والتفخيم والمطابقة والتقسيم والتسهيم والتتميم والترديد والتجريد والتتبيع والتبليغ والتصدير والاستثناء والالتفات والاعتراض والاستطراد.[٣٥] وفي شرحه للمقامة الرابعة والثلاثين تحدَّث عن التضمين.[٣٦] يُضاف إلى ذلك توقُّفه كثيرًا عند المحاسن البلاغية للأبيات التي يعرضها في استطراداته، نحو قوله: «وما أحسن ما قال ابنُ اللّبانة يرثي أختَ المرتضى صاحب مَيُورقة، وماتت بعد أخيها:

أبِنتَ العُلا جَدَّدتِ مَنعي على مَنعي مَضَى المُرتَضَى أصلًا وأتبَعتِه فَرعا

جَرَى الموتُ جَريَ الرِّيح في مَنبَتيكما فأذواكِ رَيحانًا وكَسَّرَه نَبعا».[٣٧]

**٤ – الاتجاه النقدي:**

الشريشي أديب ظريف بلا منازِع، وعالمٌ مُتقن لفنون الأدب، ويشهد بذلك شرحُه للمقامات، الذي بثَّ فيه آراءً نقدية هامة، وزيَّنَه بمختارات شعرية وأدبية تُعبِّر عن تذوُّق عالٍ للأدب، وإدراكٍ عميق لمواطن الجمال في النصوص.

ففي المقامة الثالثة والعشرين وهي الشعرية، استغل الشريشي مناسبة اتّهام أبي

(٣٤) الشريشي ١: ٣٠٢.

(٣٥) الشريشي ٣: ١٢٣– ١٤٩.

(٣٦) الشريشي ٤: ١٤٢.

(٣٧) الشريشي ٥: ١١١.

زيد السروجي ابنَه بسرقة شعره، وتخاصمهما عند أحد الولاة، ليستطرد في الحديث عن السرقات الشعرية وأنواعها، وهي من القضايا النقدية، فرأى أنها عشرون قسمًا: عشرة منها محمودة، وعشرة مذمومة. ومن أمثلة الأولى قول حسان بن ثابت:

يُغشَونَ حتّى ما تَهرّ كِلابُهم لا يَسألُونَ عن السَّوادِ المُقبِلِ

الذي أخذه أبو نُواس وزاد في لفظه دون معناه فقال:

إلى بَيتِ حانٍ لا تَهرُّ كِلابُهُم عَلَيَّ، ولا يَخشَونَ طُولَ ثَوائِي[٣٨]

وفي السرقات المذمومة قال الشريشي: «الثالث: نَقلُ ما حسُنَ معناه ومَبناه إلى ما قبح معناه ومبناه، كقول امرئ القيس:

ألَم تَرَياني كلَّما جِئتُ طارِقًا وجَدتُ بها طيبًا، وإن لم تَطَيَّبِ

فأتى بما لا يُعلم وجودُه في البشر، مِن وجود طِيبٍ مِمّن لم يَمسّ طيبًا، وجاء ببَيت في مراده، حَسَن النِّظام مُستَوفَى التّمام، أخذه كُثَيِّر فقال:

فما رَوضةٌ بالحُسْنِ صَيِّبةُ الثَّرى يمجّ النَّدَى جَثجاثُها وعَرارُها

بأطيَبَ مِن أردانِ عَزّةَ مَوهِنًا إذا أُوقِدَت بالمَندَلِ الرَّطبِ نارُها

فطَوَّل وحَسَّن، وقَصَّرَ غايةَ التَّقصير، وأخبر أنها إذا تطيَّبَت كالرَّوضة في طيبها، وذلك ممّا لا يُعدَم في أقلّ البَشَر تنظيفًا».[٣٩]

وفي شرح المقامة ذاتها تحدَّث عن توارد الخواطر في الشعر، وهذا من القضايا النقدية أيضًا، ويقصد بتوارد الخواطر، أو ما يُسمِّيه بعضهم وَقْع الحافر على الحافر، أن

(٣٨) الشريشي ٣: ٨٥.

(٣٩) الشريشي ٣: ٨٦.

يتَّفق شاعران في بيتين مع اختلاف بسيط في اللفظ، من دون أن يكون أحدهما قد نقل عن الآخر أو تأثَّر به، قال الشريشي: «ومن توارد الخواطر قول ربيعة بن مقروم:

لو أنَّها عَرَضَت لأشمَط راهِبٍ عَبَـــدَ الإلـــهَ صَرورةٍ مُتَبَتِّـــلِ

وقال النابغة: صَرورةٍ مُتَعبِّدِ».(٤٠) فكلا الشاعرين أتى بنفس الألفاظ على نفس البحر، ولا فرق إلا في كلمتي: متبتِّل ومُتعبِّد، وهما مترادفتان أيضًا.

ويُكثر الشريشي من المقارنة بين الأشعار المتشابهة في الموضوعات، وقد يُعلِّق عليها مُظهِرًا ما بينها من تفاضل وما تتَّصف به من حُسن، ولكنه في الغالب يكتفي بإيرادها دون تعليق تاركًا للقارئ حرّية الحُكم، وابتعاده عن التعليق لسببين فيما أعتقد: أولهما أنه لا يختار إلا ما يعدُّه من أفضل ما قيل في بابه، وبهذا تشهد كلُّ مُختاراته الشعرية، وفي هذه الحالة يكون قد استعملَ خبرتَه في النقد قبل تثبيت الاختيار في الشرح. والسبب الثاني احترامه للأدباء جميعًا، وحرصه على ألا يغضّ من قيمة أحد، ويدلّ على ذلك ثناؤه على جميع الأدباء واستعماله عبارات الترحُّم على مَن تُوُفِّي منهم.

ومن أمثلة مقارناته بين الأشعار التي تتفق في موضوعاتها، ما أورده من أشعار قيلت في أسباب الشيب: « وقال ابن الملح الشِّلِيّ:

طَلَـعَ المَـشيبُ بِلِمّتِـي فتَعجَّبُـوا مِـن كَـدِّه، وتَعجَّبُـوا مِـن مُهلتِـهْ

ما شِبتُ مِن كِبَرٍ ولكنْ مَن يَبِتْ دَنِفًـا ومُـشتاقًا يَـشِبْ مِـن لَيلتِـهْ

وقال أبو عثمان الخالِديّ:

(٤٠) الشريشي ٣: ١٠٤.

فَـدَيتُكِ مـا شِـبتُ مِـن كَـبرةٍ وهــذِيَ سِــنِّي وهــذا الحِــسابُ
ولكِـنْ هَجَـرتِ فحَـلَّ المَـشِيبُ ولَو قد وَصَـلتِ لحَلَّ الـشَّبابُ».(٤١)

ومن أمثلة الإشارات النقدية في الشرح قول الشريشي معلِّقًا على بيت امرئ القيس:

كأنَّ قُلُوبَ الطَّيرِ رَطبًا ويابِسًا لَدَى وَكرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالي

«أجمع أهل العِلم بالشعر كأبي عمرو بن العلاء والأصمعيّ أن أحسَن التشبيه ما يُقابَل به تشبيهان في بيت واحد، وأن أحدًا لم يقلْ ذلك كبيت امرئ القيس... وقال بشار: ما زلت مذ سمعتُ قوله: كأن قلوب الطير، أُراوِد نفسي أن أُشَبِّه شيئين بشيئين ولا أستطيع ذلك، إلى أن قُلت:

كـأنّ مثـارَ النَّقـعِ فـوقَ رُؤُوسِـنا وأســيافَنا ليــلٌ تَهــاوَى كواكِبُــه

ويا بُعدَ ما بين البيتين، على أن بيت بشّار غريب، ولا أحفظ للبيتين ثالثًا».(٤٢)

ومن أمثلة الإشارات النقدية أيضًا قول الشريشي: «وباب التجنيس فاقَ الناسَ فيه حبيبٌ، والناس له تَبَع، كما انفرد بحسنِ القَطع في آخِر قصائده، فلا يكاد الشاعرُ الماهرُ يزيد بيتًا في آخر قصائده في الغالب. كما انفرد الحَسَنُ بحُسن الابتداء، فله ابتداءاتٌ لا يُجارَى فيها. كما انفرد ابن المعتزّ بجودة التشبيه، يكاد على كثرته في شعره ألا يسقط له تشبيهٌ واحد. كما انفرد المتنبي بلطف التخلّص من التغزل إلى المديح».(٤٣)

---

(٤١) الشريشي ٤: ٢٨٠.

(٤٢) الشريشي ٣: ١٢٨.

(٤٣) الشريشي ٣: ١٢٥. وحبيب: هو أبو تمام. والحَسن: هو أبو نواس.

**٥- المُختارات الأدبية:**

أكثر الشريشي من المُختارات الشعرية والنثرية في شرحه، وقد جاءت على صورة استطرادات دعت إليها مناسبات. ففي المقامة الثامنة والثلاثين مثلًا أورد الشريشي نصوصًا في زجر الطَّير والتَّفاؤل، ثم أورد نصوصًا في وجوب قضاء حوائج الناس منها الحديث الشريف: «خُلُقان يُحبُّهما اللهُ وهما: السَّخاءُ والسَّماحةُ، وخُلُقان يُبغضهما الله وهما: البُخلُ وسُوءُ الخُلُق. وإذا أراد الله بعَبدٍ خَيرًا استَعمَلَه على قضاء حوائج الناس».(٤٤)

والشريشي لا يهتم بتوثيق النصوص والأخبار، وكأنه أراد بذلك ألا يطول حجم الشرح دون فائدة، فهو يُورد الحديث الشريف من دون سند أو تخريج كما في الحديث السابق، ويُورِد النصوص في الغالب دون ذِكر مصدرها نحو: «قال خالد بن صفوان: لا تسألِ الحوائجَ ثلاثًا: كَذُوبًا فيُقرِّبَ بعيدًا ويُبعِّدَ قريبًا، ولا أحمقَ فإنه يُريد أن ينفَعَكَ فيَضُرّك، ولا رَجُلًا له إلى صاحِبكَ حاجة فإنّه يُصَيِّر حاجتَكَ بِطانةً لحاجتِهِ».(٤٥) ويُورد الأشعار دون ذكر مصدرها وأحيانًا دون ذِكر قائليها، نحو: «وقال آخر:

ألا رُبَّ بَيضاء المحاجِرِ طَفلةٍ تُساقُ إلى وَغدٍ مِنَ القَومِ تَنبالِ
يَقولُونَ جَرَّتها إليكَ قَرابةٌ فوَيحَ العَذارَى مِن بني العَمِّ والخالِ»(٤٦)

(٤٤) الشريشي ٤: ٢٦٢.

(٤٥) الشريشي ٤: ٢٦٢.

(٤٦) الشريشي ٤: ٧٤.

وتدلّ المختارات الأدبية على الذوق الأدبي الرفيع للشارح وسعة اطّلاعه، فهو لم يُضَمِّن شَرحَه إلا أحسَنَ ما قيل في بابه من شعر وحكمة وطُرفة وغير ذلك، نحو قوله: «قال بُزُرجُمهر: إذا أقبَلَت عليك الدُّنيا فأنفِق منها فإنها لا تَفنى، وإذا أدبرت عنكَ فأنفِق منها فإنَّها لا تَبقى. أخذ هذا المعنى الشاعر فقال:

لا تَبخَلَنَّ بِدُنيا وهيَ مُقبِلةٌ فليسَ يُنقِصُها التَّبذيرُ والسَّرَفُ

فإنْ تَوَلَّت فأحرى أن تَجودَ بها فالحَمدُ منها إذا ما أدبَرَت خَلَفُ».[٤٧]

ويذكر الشريشي أحيانًا مصادرَ شرحه، ففي حديثه عن السرقات الشعرية مثلًا، ذَكَر أنه أخذها من كتاب «المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي» لابن وكيع.[٤٨] وفي حديثه عن التشبيه ذكر أنه استقى مادته من كتاب «الخصائص» لابن جني.[٤٩] هذا مع التذكير بأن معظم النصوص أوردها على صورة محفوظات ذهنية دون توثيق.

وتجدر الإشارة إلى أن كثيرًا من مُختاراته الأدبية لا تخلو من فكاهة أو طُرفة أو حكمة أو جواب مُعجِب، وكأنه أراد من وراء ذلك أن يجعل مادة الشرح مما يُستساغ في المجالس، كما تقدَّم سابقًا. ومن ذلك حديثه عن بعض نوادر المعلِّمين: «الجاحظ: كان في المدينة رجلٌ معلِّمُ صِبيان، يُفرط في ضربِهم. فلاموه على ذلك،

(٤٧) الشريشي ٤: ٢٧١.

(٤٨) الشريشي ٣: ٨١.

(٤٩) الشريشي ١: ٣٠٥.

فساءَني حالُه معهم [فذهبت إليه لأرى حقيقة الأمر]، فاستفتحَ صَبِيٌّ وقال: يا مُعلِّم ﴿وإنَّ عَلَيكَ اللَّعنةَ إلى يَومِ الدِّينِ﴾ ما بَعدَه؟ فقال: بل عليكَ وعلى والدَيكَ لَعائِنُ الله تَترى. وجاء آخر فقال: يامعلِّم ﴿اخرُجْ منها فإنَّك رَجيمٌ﴾ ما بعدَه؟ قال: ذاكَ أبوكَ الكَشْخان. وجاء آخر فقال: يا معلِّم ﴿ما لَنا في بَناتِكَ مِن حَقٍّ﴾ ما بعده؟ فقال: لا ولا رأيتَهُنَّ. فقال: على هذا أضرِبُهُم، أتَعذِرونَنِي؟ قُلتُ: نعم».(٥٠)

ومن أمثلة الأجوبة اللطيفة النادرة قول أبي نواس:

«كتبتُ إلى الحبيبِ بِبَيتِ شِعرٍ أُعاتِبُـــهُ فأغـــضَبَه كِتـــابي
أجِبْنِـي يـا مَلُـولُ عـلى كتـابي فـإنَّ الـنَّفسَ تَـسكُنُ بـالجَوابِ
فوَقَّـعَ في الكِتـابِ: تُـزادُ هَجـرًا وإبعـادًا إلى يَـومِ الحِـسابِ»(٥١)

**٦- الإشارات التاريخية والتراجم والبلدان:**

يكثر في الشرح عرضُ الحوادث التاريخية وأيام العرب وتاريخ البلدان وتراجِم الأعلام، إذ يتلقَّف الشارح كلَّ إشارة تاريخية أو ذِكر لأحد الأعلام والبلدان، وردت في المقامات، ويستطرد في الحديث عنها. ففي المقامة الثامنة عشرة (السِّنجارية) مثلًا تحدَّث عن تاريخ الشام وفضلها على سائر البلدان، وتعرَّضَ لأنساب بني نُمَير، وقدَّمَ وَصفًا لمدينة سنجار، ثم عرَضَ قصةَ ثمود،

(٥٠) الشريشي ٥: ٢١٠.

(٥١) الشريشي ٥: ٢٥٤.

وقصةَ موسى وهود عليهما السلام، وتحدَّث عن تاريخ بابل، وترجم للمغنِّي المشهور مَعبَد ولإسحاق الموصلي، ولبَعضِ الجارِيات المتأدِّبات، ولسَطيح الكاهِن الجاهلي.(٥٢)

ويتَّصف منهجُه في التراجم والتعريف بالبلدان بالدِّقة والتّفصيل والاعتماد على المصادر الموثوق بها، أما في التاريخ فيتَّصف بقبول كثير من الرِّوايات دون تمحيص في الغالب، فهو لم يكن يهتمّ بالتَّحرِّي عن الخبر ونقده بمقدار اهتمامه بالقَصَص، ولذلك ضمَّن شَرحَه كلَّ ما يصلح مادّةً للمجالِس، ومن أمثلة ذلك ما جاء في حديثه عن مدينة بابل حيث قال: «وهي أقدَم بناء بُنِي بعد الطُّوفان، ونُسِبَ السِّحرُ لها لأن بها هاروتَ وماروتَ مُعَلِّمَي السِّحر...».(٥٣) وسَرد قصة هاروت وماروت مع المرأة التي مُسِخَت لأنها أغوَتْهما وأصبَحَت كوكَبَ الزُّهْرة، أما الملكان فما زالا يُعذَّبان ببابل ويُعلِّمان الناسَ السِّحرَ، مع العلم أن هذه القصة ليست حقيقية، بل هي من الإسرائيليات.(٥٤)

**٧- الاستطراد:**

يتَّصف الشرح عامة بكثرة الاستطرادات وتنوعها، فحين يذكر الحريري في مقاماته بلدةً يستطرد الشريشي في وصفها والحديث عن تاريخها، وحين يذكر علمًا من الأعلام يستطرد في الترجمة له، وحين يأتي بمَثَلٍ يستطرد في شرحه وذِكر

(٥٢) الشريشي ٢: ٢٦٤- ٣٥٢.

(٥٣) الشريشي ٢: ٢٩٠.

(٥٤) أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط ١: ٤٩٨.

قصته. يُضاف إلى ذلك أن الشارح يقتنص المعاني والمناسبات ليَستطرِدَ بذكر ما يتصل بذلك من أشعار وأخبار وقِصَص ونوادر.

وفي كثير من المواضِع لا يستوفي الحديثَ عما استطرد إليه في موضعٍ ما، فيعود لاستكمال حديثه في موضع آخر، وكأنه أراد أن يحتذي أسلوب القرآن الكريم في تناوِل القصص والأخبار، أي أن يذكر جزءًا من القصة في موضع ثم يستكملها في مواضع أخرى بحسب ما تقتضيه المناسبات.

ومن أمثلة ذلك أنه تحدَّث عن دمشق في شرحه للمقامة الثانية عشرة، فعَرض بعضَ ما قيل في وصفها نحو «وقال شيخنا ابن جبير: مدينة دمشق هي جنة المشرق، ومطلعُ حُسنه المونق، وعروس المدن ... قد أحدقَت البساتين بها إحداقَ الهالة بالقَمر، واكتَنَفَتها اكتنافَ الأكمامِ للزَّهَر، وامتدَّت بشَرقِيِّها غوطتُها الخضراء امتداد البَصَر ... ولقد صدَق القائِلونَ عنها: إن كانت الجنةُ في الأرض فدمشقُ لا شَكَّ منها، وإن كانت في السماء فهي بحيثُ تُسامِتُها وتُحاذِيها».(٥٥)

ثم ذكر بعد صفحات قليلة وصفًا مُفصَّلًا لباب جَيرون وللجامع الأموي الكبير، ومما أورده في وصف الجامع نقلًا عن ابن جبير: «هذا الجامع من أشهر جوامع الإسلام حُسنًا وإتقانَ بناء، وغَرابةَ صنعة، واحتفالَ تنميق وتزيين. ومِن عجيب شأنه أنه لا يَلُمّ به نَسجُ العنكبوت، ولا تَلُمّ به الطيرُ المعروفة بالخطاف...».(٥٦)

(٥٥) الشريشي ٢: ٣٤.

(٥٦) الشريشي ٢: ٣٨.

ثم عاد في شرحه للمقامة الثامنة عشرة إلى الشام ودمشق، فتحدث عن بعض ما قيل في فضل الشام ومنها دمشق، نحو: «وقالوا: الشامُ صفوةُ بلاد الله».[٥٧] يُضاف إلى ذلك ما ذكره من أخبار دمشق لدى الترجمة لبعض الأعلام الذين عاشوا فيها أو مَرُّوا بها.

*****

مما سبَق يتضح أن الشريشي اعتمد المنهجَ التكاملي في شرحه. وهذا المنهج يقوم على تناول النَّص المشروح من زوايا اللغة والنحو والصرف والبلاغة والنقد الأدبي والتاريخ. يُضاف إلى ذلك إغناؤه الشرح بالاستطرادات التي جعلت منه موسوعة لغوية وأدبية وتاريخية، مع الحرص على أن تكون الاستطرادات مما يستسيغه عامةُ الناس في المجالس. ولذلك مالَ إلى الاختصار في مجال علوم اللغة، وأفاض في الأدب والنوادر والأخبار.

**المصادر والمراجع**

١- بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**. ترجمة: الدكتور رمضان عبد التواب، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٥.

٢- الثعالبي: **يتيمة الدهر**. تحقيق: الدكتور مفيد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣.

٣- حاجي خليفة: **كشف الظنون**. دار الفكر، بيروت ١٩٩٠.

(٥٧) الشريشي ٢: ٢٦٥.

٤- الحريري: **مقامات الحريري**. دار الفكر، دمشق، دون تاريخ.

الحموي، ياقوت: **معجم الأدباء**. تحقيق: الدكتور عمر الطباع، ط١، مؤسسة المعارف، بيروت ١٩٩٩.

٥- أبو حيان الأندلسي: **البحر المحيط**. بعناية: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت ١٩٩٢.

٦- ابن خلكان: **وفَيات الأعيان**. تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.

٧- سيبويه: **الكتاب**. تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨.

٨- الشريشي: **شرح مقامات الحريري**. تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت وصيدا ١٩٩٨.

٩- الصفدي، صلاح الدين: **أعيان العصر وأعوان النصر**. تحقيق: الدكتور علي أبي زيد ورفاقه، ط١، دار الفكر، دمشق ١٩٩٨.

١٠- القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. شرح وتحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧.

**١١- مجلة التراث العربي**، العدد ٨٥، لعام ٢٠٠٢.

**١٢- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق**، المجلد ٨٠ لعام ٢٠٠٥.